الغرانيق

قصة دخيلة على السيرة النبوية

بقلم
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الغرانيق

قصة دخيلة على السيرة النبوية

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب: ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق: ص.ب: ١٣٠٧٩ - هاتف: ١١١٦٣٧
عمّان: ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن «قصة الغرانيق» التي ذكرتْها معظم كتب السيرة وكثير من كتب التفسير هي قصة باطلة، من وضع الزنادقة. كما قال المحققون من علماء المسلمين.

وتكلم في إبطالها كثير من علماء المسلمين، وروَّج لها - في المقابل - كثير من المستشرقين، لما فيها من الطعن في أمر الوحي، والعصمة للرسول ﷺ.

وقد أفردها بعضهم بالتأليف، لإشباع القول فيها.

ومن الغريب بعد هذا كله أن يأتي بعض كتاب السيرة المعاصرون ليدافع عنها، ويؤكد إثباتها.

وقد سبق لي أن كتبت عن هذه القصة موضوعاً

في كتاب «أضواء على دراسة السير»، وبينت فيه بطلانها، واعتمدت في ذلك عامل الزمن، الذي يقول كلمة الفصل في إبطال هذه القصة، والذي لم أجد من اعتمده في مناقشته للموضوع بحسب اطلاعي.

وقد رأيت أن أضيف ما اجتمع لدي حول الموضوع، وأن أفرده بهذه الرسالة ليكون قريب المتناول.

والله أسأل. أن يجعل أعمالنا خالصة له، إنه نعم المسؤول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

غرة محرم ١٤١٩هـ

١٩٩٨/٤/٢٧م

وكتبه

صالح أحمد الشامي

تمهيد

في ملخص القصة ونقد العلماء لها

ملخص القصة:

تبدأ القصة من هجرة الحبشة الأولى، حيث رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، فنصحهم بالهجرة إلى الحبشة، فخرج بعض المسلمين إليها في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة.

ولم يطل غيابهم، حيث عادوا بعد ثلاثة أشهر حين بلغهم أن قريشاً صافَوْا الرسول ﷺ وكفوا عنه.

وكان سبب ذلك: أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم في مجلس ضم المسلمين والمشركين، فلما وصل في تلاوته إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى».

فقال المشركون: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم،

وقد علمنا أن الله يخلق ويرزق ويحيي ويميت، ولكن آلهتنا تشفع عنده.

فلما بلغ النبي ﷺ آية السجدة في هذه السورة سجد، وسجد معه المسلمون والمشركون كلهم إلا شيخاً من قريش، رفع إلى جبهته كفاً من حصى فسجد عليه وقال: يكفيني هذا.

فحزن النبي ﷺ حزناً شديداً لما علم بما حدث، وخاف من الله خوفاً عظيماً، فأنزل الله تعالى تسلية له وتخفيفاً عنه قوله تعالى من سورة الحج: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ فسرَّ رسول الله ﷺ بذلك، وذهب عنه ما وجد في نفسه من الخوف، بما أعلمه الله به من أن هذا الأمر جرى على سنة من سننه تعالى على أنبيائه ورسله. لحكم عالية يعلمها تعالى.

تلك هي القصة...

ولا شك بأنها صيغت بأسلوب دقيق، وبأن الذي صاغها على علم لا بأس به، إذ اتخذ من قصة السجود - التي وردت في «الصحيحين» وغيرهما - محوراً

لقصته، مما يجعل المرء للوهلة الأولى يصدق كلما جاء فيها، بناء على ذلك.

محل الإشكال:

يحسن بنا قبل بيان موقف العلماء أن نتعرف على محلِّ الإشكال فيها ولماذا رفضها العلماء.

إن أول معطيات هذه القصة، هو بروز احتمال أن يكون الشيطان قد أدخل في القرآن ما ليس منه.

وذلك لأن الرسول لم ينتبه إلى ما حدث إلا بعد سجود المشركين مع المسلمين، وأن المسلمين سمعوا قول الشيطان ولم ينتبهوا - كما تقول القصة -.

وهذه القضية معارضة لأصول العقيدة الإسلامية في الأنبياء وعصمتهم، ثم هي - كما قال العلماء - معارضة للقرآن الكريم.

ذلك أن الله تعالى يقول:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الحجر، الآية ٤٢].

وإذا لم يكن الرسول ﷺ من عباد الله الوارد ذكرهم في هذه الآية، والذين لا سلطان للشيطان عليهم، فمن هم عباد الله هؤلاء؟!

وقال تعالى عن الشيطان أيضاً.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة النحل، الآية ٩٩].

وفي مقدمة هؤلاء الذين لا سلطان للشيطان عليهم الأنبياء، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ.

بل إن الله تعالى يذكر إقرار الشيطان بذلك واعترافه به، فينقل لنا ذلك في قوله تعالى:

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة ص، الآيتان ٨٢و ٨٣].

وإذا لم يكن الرسول ﷺ من المخلصين، فمن هم المخلصون؟

وإذن فقصة الغرانيق معارضة لكل هذه الآيات، لأنه تقرر أن الشيطان ألقى على لسانه ذلك الكلام، أو تكلم به الشيطان وسمعه الحاضرون، ولم ينتبه له الرسول ﷺ. وليس هناك سلطان أكبر من هذا.

ومثل هذا الكلام الذي لا سند له لا يقف في مقابلة هذه الآيات الصريحة.

بعد هذه المقدمة في بيان محل الإشكال، ننتقل إلى بيان موقف العلماء من القصة فنقول:

سلك العلماء أكثر من طريق لإبطال هذه القصة:

- فذهب بعضهم إلى إبطالها من حيث السند.

- وذهب بعضهم إلى إبطالها من حيث المتن.

- وذهب بعضهم إلى إثباتها ولكنهم لم يقروا معناها، ففتشوا عن مخرج يخرِّجون عليه هذه القصة.

وسأذكر ملخصاً لأدلة كل فريق.

إبطالها من حيث السند:

١ - قال القاضي عياض:

«.. فيكفيك أن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند متصل سليم، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: «لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقله..»... ومن حكيت عنه هذه الحكاية من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية..».

٢ ـ وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الحج:

«ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، . . . ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح والله أعلم.

ثم قال بعد أن ساق الروايات: «وكلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم».

٣ ـ وقال الشوكاني.

«ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بوجه من الوجوه. ومع عدم صحته، بل بطلانه فقد دفعه المحققون بكتاب الله سبحانه».

ثم ذكر بعض الآيات الدالة على البطلان، ثم قال:

«وقال إمام الإئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة»[1].

٤ ـ وقال الألوسي:

---

(١) نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص٦٦ نشر المكتب الإسلامي.

«لكن إثبات صحة الخبر أشد من خرط القتاد[1]، فإن الطاعنين فيه من حيث النقل علماء أجلاء، عارفون بالغث والسمين من الأخبار، وقد بذلوا الوسع في تحقيق الحق فيه، فلم يرووه إلا مردوداً. .»[2].

تلك نماذج من أقوال العلماء الذين نقدوا القصة من حيث السند، وبينوا أن أسانيدها لا تصلح للاعتداد بها.

قال الدكتور أبو شهبة:

«والقصة لم يخرجها أحد من أصحاب الصحاح، ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة كالسنن الأربعة ومسند الإمام أحمد. .»[3].

وبهذا يثبت تلف القصة أخذاً بأقوال الأئمة الأعلام.

إبطالها من حيث المتن:

وذهب كثير من العلماء إلى إبطالها من جهة

---

(١) القتاد: شجر صلب، يصعب خرقه أو خرطه.

(٢) المصدر قبله.

(٣) السيرة النبوية. الدكتور محمد أبو شهبة. دار القلم ١/٣٦٦.

المتن، إضافة إلى إبطالها من جهة السند. وذلك بسبب اضطراب الروايات.

ونذكر كلام القاضي عياض كنموذج لذلك:

«وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقله واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته:

فقائل يقول: إنه في الصلاة.

وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة.

وآخر يقول: قالها وقد أصابته سِنة.

وآخر يقول: بل حدَّث نفسه فسها.

وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وإن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك.

وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك، قال: والله ما هكذا أنزلت.

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة»[1].

(١) الشفا للقاضي عياض ٢/ ٧٥٠ وما بعدها.

تلك بعض الروايات الواردة في القصة كما يقول القاضي عياض، وما كان كذلك لا يصلح للاحتجاج به وبخاصة في مثل هذا الأمر الخطير الذي يمسّ العقيدة[1].

الفريق الثالث:

هناك فريق من العلماء أثبت للقصة شيئاً من أصل بناء على قواعد علم مصطلح الحديث ويمثل هذا الفريق الإمام ابن حجر العسقلاني حجر صاحب الفتح.

وجاء في ذلك قوله بعد أن ساق الروايات:

«وكلها سوى طريق سعيد بن جبير، إما ضعيف، وإما منقطع، لكن كثرة الطرق تدل على أن للقصة أصلاً، مع أن لها طريقين آخرين مرسلين رجالهما على شرط الصحيحين..» ثم ذكرهما[2].

ثم قال: «وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح، وهي مراسيل يحتج بمثلها من يحتج

(١) ذكر الشيخ ناصر هذه الأقوال ورواياتها بالتفضيل في «نصب المجانيق».

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٣٩.

بالمرسل، وكذا من لا يحتج به لاعتضادها بعضها ببعض»[1].

وابن حجر وإن رأى صحة السند بناء على قوله هذا، فهو متفق على بطلان ما جاء في القصة، ورأى ضرورة السعي إلى تأويل ما يستنكر منها فقال:

«وإذا تقرر ذلك، تعيَّن تأويل ما وقع فيها مما يستنكر وهو قوله: ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى، فإن ذلك لا يجوز حمله على ظاهره، لأنه يستحيل عليه ﷺ أن يزيد في القرآن عمداً ما ليس منه، وكذا سهواً إذا كان مغايراً لما جاء به من التوحيد لمكان عصمته»[2].

وهكذا يعود ابن حجر ليلتقي مع القائلين برفض القصة لتعارضها مع مسلمات العقيدة، ثم يذهب ليفتش على تأويل لها.

ولكن إثبات صحة المراسيل أمر غير مسلَّم لابن حجر، فهي قد تكون صحيحة السند إلى الشخص

(١) فتح الباري ٨/ ٤٣٩.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٣٩.

المرسل، ولا يعني ذلك صحة الخبر كما هو معروف في علم أصول الحديث.

وقد أجاب الدكتور أبو شهبة على ما ذكره ابن حجر بقوله:

«إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل، وجعلوه من قسم الضعيف لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابي، وحينئذ يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة، وعلى الثاني فلا يؤمن أن يكون كذاباً. وقد قرر الإمام مسلم هذه الحقيقة في «مقدمة صحيحه» فقال: والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة. اهـ. وقال ابن الصلاح في «مقدمته»: وما ذكرنا من سقوط الاحتجاج بالمرسل والحكم بضعفه، هو الذي استقر عليه آراء جماهير حفاظ الحديث وتداولوه في تصانيفهم».

والاحتجاج بالمرسل إنما هو في فروع الدين التي يكتفى فيها بالظن، أما الاحتجاج به على شيء، يصادم العقيدة وينافي دليل العصمة فغير مسلَّم، وقد قال علماء التوحيد: إن خبر الواحد لو كان صحيحاً لا يؤخذ به في العقائد، لأنه لا يكتفى فيها إلا بما يفيد

اليقين، فما بالك بالضعيف أو المختلف فيه»[1].

تأويل القصة:

رأينا كيف أن الإمام ابن حجر لم يقبل ما جاء في القصة، وإن كان قبل سندها المرسل، ثم اضطر إلى تأويلها، وأنقل هنا ما جاء في فتح الباري بهذا الصدد:

قال ابن حجر:

«وقد سلك العلماء ـ الذين احتجوا بالقصة ـ في ذلك مسالك:

فقيل: جرى ذلك على لسانه حين أصابته سِنة وهو لا يشعر، فلما علم بذلك أحكم الله آياته. وهذا أخرجه الطبري عن قتادة.

ورد عياض: بأنه لا يصح لكونه لا يجوز على النبي ﷺ ذلك، ولا ولاية للشيطان عليه في النوم.

وقيل: إن الشيطان ألجأه إلى أن قال ذلك بغير اختياره.

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة ١/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩.

ورده ابن العربي بقوله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[1] الآية. قال: فلو كان للشيطان قوة على ذلك، لما بقي لأحد قوة في طاعة.

وقيل: إن المشركين كانوا إذا ذكروا آلهتهم، وصفوهم بذلك، فعلق ذلك بحفظه ﷺ فجرى على لسانه لما ذكرهم سهواً.

وقد رد ذلك عياض فأجاد.

وقيل: لعله قالها توبيخاً للكفار.

قال عياض: وهذا جائز إذا كانت هناك قرينة تدل على المراد[2]، ولا سيما وقد كان الكلام في ذلك الوقت في الصلاة جائزاً[3].

وإلى هذا نحا الباقلاني.

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ خشي المشركون أن يأتي بعدها بشيء يذم آلهتهم به، فبادروا إلى ذلك الكلام فخلطوه في

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٢) ولا توجد قرينة، كما هو سياق القصة المزعومة.

(٣) هذا على القول بأن القصة وقعت في الصلاة.

تلاوة النبي ﷺ على عادتهم في قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾[1] ونسب ذلك للشيطان لكونه الحامل لهم على ذلك، أو المراد بالشيطان شيطان الإنس.

وقيل المراد بالغرانيق العلا: الملائكة، وكان الكفار يقولون: الملائكة بنات الله ويعبدونها، فسيق ذكر الكل ليرد عليهم بقوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ فلما سمعه المشركون حملوه على الجميع وقالوا: قد عظم آلهتنا ورضوا بذلك، فنسخ الله تلك الكلمتين وأحكم آياته.

وقيل: كان النبي ﷺ يرتل القرآن فارتصده الشيطان في سكته من السكتات، ونطق بتلك الكلمات، محاكياً نغمته بحيث سمعه من دنا إليه، فظنها من قوله وأشاعها:

قال: وهذا أحسن الوجوه؟؟[2].

تلك هي الأقوال التي قيلت في تأويل القصة

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٢) فتح الباري ٨/ ٤٣٩ ـ ٤٠٠.

وهي أقوال ضعيفة وبعضها مضحك، وهذا دليل واضح على معارضة القصة لأصول الاعتقاد.

أما القول الذي اختاره ابن حجر، وهو القول الأخير. فقد قال أبو شهبة في رده:

«هذا التأويل الذي ارتضاه الحافظ وغيره ممن تابعه قديماً وحديثاً، ما أضعفه عند النظر والتأمل. فهو يوقع القائل به فيما فرَّ منه، وهو تسلط الشيطان على النبي ﷺ، فالتسلط عليه بالمحاكاة، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه، كلاهما لا يجوز، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات الإلهية.

وإذا سلمنا أن الشيطان هو الذي نطق بهذا المنكر من القول، في أثناء سكوت النبي، فكيف لم يسمع ما حكاه الشيطان؟

وإذا كان سمعه، فلمَ لم يبادر إلى الإنكار؟ والبيان في مثل هذا واجب على الفور!!

وإذا لم يسمع النبي، ألم يسمع أصحابه؟

وإذا سمعوا فلمَ لمْ يبادروا إلى تنبيه الرسول؟

والحق أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون، وحاولوا إثبات أن لها أصلاً مهلهلٌ متداع لا يثبت أمام

البحث، وأن أغلب البلاء دخل على الإسلام من المنقطعات والمراسيل»[1].

فريق رابع:

استكمالاً لجميع الجوانب في هذا الموضوع، كان لا بد من الإشارة إلى هذا الفريق فالإمام ابن حجر ومن ذهب مذهبه من قبله أو بعده متفقون على ضرورة تأويل القصة، وهم في هذا يلتقون مع الفريق الذي رفضها.

ولكن بعض العلماء ـ وهم قليل ـ ذهب إلى تصحيح القصة مع التسليم بها دون استنكار أي شيء منها، أو تأويل ما، بل جوَّز على النبي ﷺ جميع ما فيها زاعماً أن ذلك لا يتنافى مع عصمته، بل هو تأديب له..[2].

---

(١) السيرة النبوية لأبي شهبة ١/ ٣٦٩.

(٢) هذا ما جاء في كلام الألوسي وعلق عليه الشيخ ناصر الدين الألباني بقوله: هو الشيخ إبراهيم الكوراني ولد سنة (١٠٢٥هـ) وقدم المدينة ولازم القشاشي.. وتوفي بالمدينة (١١٠١هـ).
وقال الشيخ ناصر عن هذا القول: يغني وضوح بطلانه عن إيراده وتسويد الصفحات لرده [نصب المجانيق ص٦٦ ـ ٦٧].

وهذا الفريق ـ فيما يبدو ـ عنده إمكانية عقلية لقبول المتناقضات، وأذكر مثالاً لهذا الفريق ـ مما جاء في واحد من كتب السيرة لكاتب معاصر، وهو يتحدث عن العبر المستفادة من هجرة الحبشة؛ قال:

«تقرير قصة الغرانيق. وإن من العجب أن يكذب بها أناس لمجرد الخوف من أن يقال: إذا صحت قصة الغرانيق، فمن الجائز أن يكون الشيطان قد أدخل في القرآن ما ليس منه، وهو وهم بحت، شبيه بوهم الروافض القائلين بأن جبريل بدَل أن يأتي عليا بالوحي والرسالة أتى بهما محمداً ﷺ، إذ لازم هذا أن الله تعالى عاجز، ونسبة العجز إلى الله كفر وكذب وباطل، إذ لا يمكن أن يقع في الكون غير ما يريد الله سبحانه وتعالى.

ولو فرضنا أن الشيطان ألقى بكلمة أو كلمات في قراءة الرسول ﷺ أليس الله قادراً على تبيينها وإبطالها؟ بل وكيف وقد قال: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1][2].

---

(١) انظر كتاب «هذا الحبيب» للشيخ أبي بكر الجزائري ص (١٢٢).

(٢) هذا القول شبيه بالقول قبله، ونكتفي برد الشيخ ناصر على القول السابق.

الخلاصة:

قصة الغرانيق باطلة من وجهين:

١ ـ لثبوتها بأخبار ضعيفة ومراسيل لا تقوم بها الحجة.

٢ ـ لاضطراب الروايات وتعارضها مع أحكام تتعلق بالعقيدة وهو ما عليه جمهور علماء المسلمين.

رَدّ القِصّة
مِنْ وجْهَةِ النّظَر التّاريخيّة

يعد النقد التاريخي من أدق الكواشف التي وضعها العلماء لبيان الأحاديث الموضوعة. ذلك أنه يعتمد على أمر غير قابل للمناقشة.

وقد قال الإمام سفيان الثوري: «لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ»[1].

ومن الأمثلة على ذلك: «ما رواه الخطيب البغدادي في «الكفاية» عن عفير بن معدان. قال: قدم علينا عمر بن موسى حمص، فاجتمعنا إليه في المسجد، فجعل يقول: حدثنا شيخكم الصالح، فلما أكثر قلت له: من شيخنا هذا الصالح؟ سمِّه لنا نعرفه.

قال: خالد بن معدان.

قلت له: في أي سنة لقيته؟

قال: لقيته سنة ثمان ومائة.

---

(١) معالم السنة النبوية، للدكتور عبد الرحمن عتر ص١٢٤ نقلاً عن «الكفاية» للخطيب البغدادي ص١١٩.

قلت: فأين لقيته؟

قال: لقيته في غزاة أرمينية.

فقلت له: اتق الله يا شيخ ولا تكذب، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة. وأنت تزعم أنك لقيته بعد موته بأربع سنين، وأزيدك أخرى: أنه لم يغز أرمينية قط، كان يغزو الروم»[1].

ومن الأمثلة على ذلك: ما ذكره الذهبي من أن سهيل بن ذكوان قال: «لقيت عائشة بواسط» قال الذهبي في التعليق على هذه الكذبة: وهكذا يكون الكذب فقد ماتت عائشة قبل أن يخط الحجاج مدينة واسط بدهر[2].

ومثال ثالث: فقد ذكر السيوطي في «نظم العقيان في أعيان الأعيان» قوله: «من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء مع اليهودي الذي أظهر كتاباً، فيه أن رسول الله ﷺ أمر بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة الصحابة.. فحمل الكتاب إلى رئيس الرؤساء،

(١) المرجع قبله ص١٢٤ نقلاً عن «الكفاية» ص١١٩.
(٢) الحديث النبوي للدكتور محمد لطفي الصباغ ص٢٦٥ نقلاً عن الميزان ٢/ ٣٤٢.

فعرضه على الحافظ أبي بكر الخطيب، فتأمله وقال: مزوَّر.

فقيل له: من أين لك ذلك؟

فقال: فيه شهادة معاوية، وهو أسلم عام الفتح[1]، وفتوح خيبر سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ، ومات سعد يوم قريظة قبل خيبر بسنتين»[2].

تلك أمثلة على النقد اعتماداً على التاريخ، تبين قوة الحجج التي تعتمد عليه، ذلك أنها تعتمد على لغة الأرقام وهي لغة دقيقة.

وقد اعتمدت هذا الأسلوب في نقد قصة الغرانيق، وهي طريقة لم أر من اعتمد عليها أو أشار إليها.

وقصة الغرانيق وفقاً للملخص الذي ذكرناه، وقعت أحداثها جميعاً خلال أربعة أشهر هي: رجب وشعبان ورمضان وشوال من السنة الخامسة للنبوة. فقد

(١) أي في العام الثامن من الهجرة. فكيف يشهد وإنما أسلم بعد سنة من خيبر؟
(٢) الحديث النبوي للدكتور الصباغ ص٢٦٤.

ذهب المهاجرون في شهر رجب، ثم حدث في غيابهم قراءة سورة النجم.. ثم رجعوا بناء على ذلك في شهر شوال، بعد أن نزلت آية سورة الحج تسلية للرسول ﷺ. فهل كان الأمر كذلك؟

لبيان ذلك لا بد من استعراض دقيق لحادثة هجرة الحبشة وما تبعها، وأستطيع القول بأن العناصر المكونة للقصة والتي تحتاج إلى تفحصها هي:

- الهجرة إلى الحبشة وتحديد التواريخ المتعلقة بها.
- بيان التاريخ الذي نزلت فيه سورة النجم.
- بيان التاريخ الذي نزلت فيه آية الحج، وبيان تفسيرها.

وسأحاول بيان ذلك في الفصول التالية:

الفصل الأول

الهجرة إلى الحبشة

الهجرة الأولى:

من المتفق عليه أن المسلمين هاجروا إلى الحبشة مرتين:

وكانت الهجرة الأولى حينما اشتد البلاء على المسلمين، فقال لهم رسول الله: (لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه).

وخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام. والمهاجرون هم:

عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو.

الزبير بن العوام.

مصعب بن عمير.

عبد الرحمن بن عوف.

أبو سلمة بن عبد الأسد، ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة.

عثمان بن مظعون.

عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة.

أبو سبرة بن أبي رهم.

سهيل بن بيضاء[1].

وكان خروجهم في شهر رجب من السنة الخامسة.

وقد حاولت قريش استرجاعهم ففاتوها. ولم تعدم قريش الحيلة فوصل خبر إلى المهاجرين مفاده أن هدنة قامت بين قريش وبين النبي ﷺ، فعادوا إلى

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣.

مكة، وتبين لهم كذب الخبر، فلم يدخل أحد منهم إلا بجوار.

وكان رجوعهم في شوال سنة خمس من البعثة.

الهجرة الثانية:

ثم اشتد البلاء مرة أخرى أكثر من ذي قبل، فأذن الرسول ﷺ بالخروج مرة ثانية، وكان عدد من خرج هذه المرة ثلاثة وثمانون رجلاً، ومن النساء ثماني عشرة امرأة. واستمرت إقامتهم حتى سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً إلى مكة ومن النساء ثماني نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس بها سبعة نفر، وشهد بدراً منهم أربعة وعشرون[1].

أما بقية المهاجرين إلى الحبشة ومعهم جعفر بن أبي طالب، فقد ظلوا مقيمين في الحبشة إلى العام السابع من الهجرة عندما طلب رسول الله ﷺ عودتهم إلى المدينة، فوصلوا إليها بعد غزوة خيبر.

ذلك مجمل أحداث الهجرتين إلى الحبشة.

(١) طبقات ابن سعد ١/ ٢٠٤.

ونتوقف عند النقاط ذات العلاقة بموضوعنا: وهي:

- تاريخ ذهاب المهاجرين في الهجرة الأولى، وتاريخ عودتهم.
- هجرة عبد الله بن مسعود.
- إثبات عودة الفريق الأول من مهاجري الهجرة الثانية إلى مكة.
- تحديد تاريخ هذه العودة.

أولاً: الهجرة الأولى:

تتفق الروايات على أن ذهاب أصحاب الهجرة الأولى كان في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، وأن عودتهم كانت في شهر شوال من العام نفسه[1].

ثانياً: هجرة ابن مسعود:

لم يذكر ابن إسحاق «ابن مَسعود» في عداد

(١) هذا ما ذكره ابن سعد ١/ ٢٠٤، وابن كثير في «البداية والنهاية» ٣/ ٦٦، والطبري ٢/ ٣٢٩، وفتح الباري ٧/ ١٨٨، وكذا الكامل لابن الأثير.

المهاجرين في الهجرة الأولى، بينما ذكره ابن سعد معهم.

ورواية ابن سعد معارضة بأمور:

١ ـ جزم ابن إسحاق أن ابن مسعود لم يكن في الأولى، وإنما كان في الثانية[1].

٢ ـ هناك عدد من الروايات، تدل على شهود ابن مسعود حادثة إسلام عمر بن الخطاب، وكان إسلامه بعد هجرة المهاجرين في المرة الأولى[2].

وقد ثبت في «صحيح البخاري» عن ابن مسعود أنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب[3]، وقال أيضاً: ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر[4].

(١) فتح الباري ٧/ ١٨٩.
(٢) هذا ما تؤكده رواية ابن إسحاق، ويؤكده أيضاً حديث عمر مع أم عبد الله بنت أبي حثمة زوجة عامر بن ربيعة، وإظهار رقته، وطمعها في إسلامه، وهي من المهاجرات في الهجرة الأولى [مجمع الزوائد ٩٨٤٠].
(٣) أخرجه البخاري برقم ٣٦٨٤.
(٤) رواه ابن أبي شيبة، انظر شرح الزرقاني على «المواهب» ١/ ٢٧٧

فليس معقولاً أن يكون ابن مسعود مهاجراً، ثم يشهد إسلام عمر، ويصرح بما رأى من عز المسلمين إثر ذلك.

٣ ـ كانت هجرة ابن مسعود مع جعفر بن أبي طالب ـ وهي الثانية ـ كما جاء في مسند أحمد عن ابن مسعود قال:

بعثنا رسول الله إلى النجاشي ونحن نحواً من ثمانين رجلاً فيهم عبد الله بن مسعود وجعفر[١].

وإذن: فمن المؤكد أن عبد الله بن مسعود كان في الهجرة الثانية[٢].

ثالثاً: رجوع المهاجرين إلى مكة:

ذكرنا أن مهاجري الهجرة الثانية، قد عاد فريق منهم إلى مكة، عندما سمع بمهاجر النبي ﷺ، وتأخر الفريق الثاني حتى كانت عودته بأمر من الرسول ﷺ في العام السابع من الهجرة.

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٦٩.

(٢) علماً بأنه لا يضير بحثنا أن يكون ابن مسعود في الهجرة الأولى، أو لا يكون. وقد أورد ابن سعد في «طبقاته» رواية عن أبي معشر ومحمد بن عمر بأنه هاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً [طبقات ابن سعد ٣/ ٨٠].

ونحن بحاجة إلى أمرين في هذا الموضوع:

إثبات عودتهم إلى مكة.

وبيان الزمن الذي رجعوا فيه.

ونتحدث في هذه الفقرة عن الأمر الأول.

الأدلة على رجوع هذا الفريق إلى مكة كثيرة، وما كنا بحاجة إلى هذا البحث لولا الإشكال الذي طرحه كل من ابن القيم[١] وابن حجر بهذا الشأن.

---

(١) طرح ابن القيم ـ رحمه الله ـ هذا الإشكال في كتابه «زاد المعاد» ٣/ ٢٣ ـ ٢٦ فقرر وجود هجرتين إلى الحبشة، وأن عبد الله بن مسعود كان واحداً من أصحاب الهجرة الأولى الذين عادوا إلى مكة إثر سماعهم بإسلام أهلها، وأن عبد الله بن مسعود عاد معهم.
ثم كانت الهجرة الثانية، وأصحاب هذه الهجرة لم يعودوا إلا في العام السابع من الهجرة، حيث عادوا مع جعفر إلى المدينة.
ثم يقول ابن القيم متسائلاً: «ولم يذكر أحد قدوم مهاجري الحبشة إلا في القدمة الأولى بمكة، والثانية عام خيبر مع جعفر، فمتى قدم ابن مسعود في غير هاتين المرتين؟ ومع من؟».
وبما أن بعض المهاجرين في المرة الثانية حضروا غزوة بدر من أمثال عثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، فإن ابن القيم=

ومن هذه الأدلة:

١ ـ اتفاق روايتي ابن إسحاق وابن سعد على النص التالي:

«إن المسلمين بالحبشة، لما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم [إلى مكة][1] ثلاثة وثلاثون رجلاً، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس منهم سبعة، وشهد منهم بدراً أربعة وعشرون»[2].

ولما عدَّ ابن هشام العائدين من الهجرة الثانية ذكر عبد الله بن سهيل بن عمرو، وقال: وكان حبس عن رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة[3].

= يقول: «فإما أن يكون هذا وهماً ـ أي حضورهم في بدر ـ وإما أن يكون لهم قدمة أخرى قبل بدر، فيكون لهم ثلاث قدمات: قدمة قبل الهجرة، وقدمة قبل بدر، وقدمة عام خيبر».

هذا ملخص ما جاء في إشكاله، وسيكون في الأدلة التي سأذكرها ما يزيل الإشكال إن شاء الله تعالى.

(١) كلمة [إلى مكة] هي من رواية ابن إسحاق.

(٢) رواية ابن إسحاق نقلها «فتح الباري» ٣/ ٧٤ ورواية ابن سعد في الطبقات ١/ ٢٠٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٦٨.

فهذا يدل صراحة على رجوعهم إلى مكة، كما في رواية ابن إسحاق نصاً، وبدلالة السياق من رواية ابن سعد، فلو كان رجوعهم إلى المدينة مباشرة لما مات منهم من مات بمكة، ولما حبس منهم فيها من حبس.

٢ ـ ومما يؤكد رجوعهم إلى مكة، حديث أم سلمة عند الإمام أحمد، والذي تتحدث فيه تفصيلاً عن الهجرة إلى الحبشة، وفيه مقابلة جعفر للنجاشي، والأمر الذي يبين أنها كانت تتحدث عن الهجرة الثانية، وفي آخره تقول: فكنا عنده ـ أي النجاشي ـ في خير منزل، حتى قدمنا على رسول الله ﷺ وهو بمكة[1].

وهكذا صرحت بأن الرجوع كان إلى مكة.

٣ ـ خبر هجرة أبي سلمة وأم سلمة من مكة إلى المدينة، وما حصل من حبس أم سلمة من قِبَل أهلها، وانتزاع ولدها منها، من قِبَل أهل زوجها، وكان ذلك بعد العودة من الهجرة الثانية إلى الحبشة[2]، ولو كانت عودتهم إلى المدينة مباشرة فكيف يحصل هذا؟

---

(١) الفتح الرباني للبنا ٢٠/ ٢٢٦ ـ ٢٢٩، وسيرة ابن هشام ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٤٦٨.

٤ ـ وجود عبد الله بن مسعود في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، وهو أحد المهاجرين الهجرة الثانية، وذلك بدلالة روايته لحادثة السجود في سورة النجم، وهي إنما كانت بعد عودة مهاجري الهجرة الثانية، كما سنوضح ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني عند الحديث على السورة المذكورة.

جاء في «صحيح الإمام البخاري» وغيره قول ابن مسعود: «كنا نسلم على النبي ﷺ وهو في الصلاة، فيردّ علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا، فلم يرد علينا وقال: (إن في الصلاة شغلاً)[1]».

ونزول منع الكلام في الصلاة إنما حدث في وقت متأخر، بعد بدء إسلام الأنصار، أي بعد العام العاشر من البعثة، بدلالة حديث زيد بن أرقم ـ وهو من الأنصار ـ حيث قال: «إنا كنا لنتكلم في الصلاة على عهد النبي ﷺ يكلم أحدنا صاحبه بحاجته، حتى نزلت ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ الآية فأمرنا بالسكوت»[2].

(١) أخرجه البخاري برقم (١١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٢٠٠).

ومن المعلوم أن منع الكلام في الصلاة إنما كان في مكة قبل الهجرة.

هذه الأدلة، فيها الكفاية لإثبات رجوع بعض مهاجري الهجرة الثانية إلى مكة.

وأما حديث عائشة الذي تتحدث فيه عن هجرة أبيها، والذي قالت فيه: «فقال النبي ﷺ: إني رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ـ وهما الحرتان ـ فهاجر من هاجر قبل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة»[1] ولم تقل إلى مكة، فهو من باب الاختصار والإجمال، وقد نقلت الروايات الأخرى بإيضاح ذلك كما ذكرنا، ولهذا قال صاحب الفتح في بيان قولها: «إلى المدينة» قال: رجعوا إلى مكة فهاجر إلى أرض المدينة معظمهم لا جميعهم[2].

رابعاً: تحديد تاريخ العودة إلى مكة:

إن المناقشة السابقة تلقي لنا الضوء على تحديد تاريخ عودة من عاد إلى مكة من مهاجري الهجرة الثانية:

(١) رواه البخاري برقم ٣٩٠٥، وفي المسند ٦/ ١٩٨.

(٢) فتح الباري ٧/ ٢٣٤.

١ ـ فقد رأينا في روايتي ابن إسحاق وابن سعد قولهما:

«إن المسلمين بالحبشة لما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم إلى مكة ثلاثة وثلاثون..»[١].

٢ ـ ورأينا قبل قليل حديث عائشة عن هجرة أبيها وفيه: «.. فقال النبي للمسلمين إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ـ وهما الحرتان ـ فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة»[٢].

وهذا يعني أن رجوعهم كان بعد لقاء الرسول ﷺ بالأنصار، في اللقاء الأول في السنة الحادية عشرة من البعثة، أو في اللقاء الثاني الذي حدثت فيه بيعة العقبة الأولى في العام الثاني عشر.

وقد كان اللقاء الأول بالأنصار بعد حادثة الإسراء والمعراج كما سنوضح ذلك في الفصل الثاني.

---

(١) فتح الباري ٣/ ٧٤، وطبقات ابن سعد ١/ ٢٠٧.

(٢) أخرجه البخاري برقم ٣٩٠٥.

الخلاصة المستفادة من هذا الفصل:

نقرر من خلال ما سبق:

١ ـ إثبات وجود هجرتين إلى الحبشة.

٢ ـ وإثبات وجود رجوعين من الحبشة إلى مكة.

٣ ـ وأن الرجوع الأول عقب الهجرة الأولى كان لجميع المهاجرين، بسبب إشاعة كاذبة.

٤ ـ وأن الرجوع الثاني لبعض مهاجري الهجرة الثانية، كان عقب الإذن بالهجرة إلى المدينة، وأن عبد الله بن مسعود كان واحداً منهم.

الفصل الثاني

في بيان نزول سورة النجم

تعد آيات سورة النجم قطب الرحى في قصة الغرانيق، فمن خلالها حاول الشيطان إلقاء ما أراد كما تقول القصة.

تقول القصة: بينما كان الرسول ﷺ يقرأ سورة النجم، وعندما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ ألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى... وسجد النبي ﷺ والمسلمون في آخرها وسجد معهم المشركون.. وكان ذلك سبباً لعودة مهاجري الهجرة الأولى إلى الحبشة.

خلط الحق بالباطل:

وقد خلط واضعو القصة الحق بالباطل في اتقان خبيث.

فقصة السجود من المسلمين والمشركين جاءت في «الصحيح»، وما عدا ذلك فهو كذب وافتراء. ووجود الخبر الصحيح في القصة هو الذي جعل لها القبول لدى بعضهم ممن لا يتثبت في قبول الأخبار ولا يمحصها.

تحديد زمن نزولها:

والمطلوب منا في هذا الفصل تحديد الزمن الذي نزلت فيه.

إن السورة كما هو واضح من آياتها تعالج قصة المعراج، كما تحدثت سورة الإسراء عن الإسراء.

فهي تؤكد صدق النبي فيما يقول، وأن قوله من الوحي، وتؤكد صدقه فيما ينقله من مشاهداته، ومنها ما حصل في الملأ الأعلى ليلة الإسراء والمعراج. ومن ذلك مشاهدته لجبريل عليه السلام على صورته الحقيقية..

فهي مؤازرة للرسول ﷺ في مواجهة التكذيب الذي ناله من الكفار.

وهذا ما يفسر لنا قراءتها من قبل الرسول ﷺ على المسلمين والمشركين في مجلس واحد كان فيه الفريقان.

ويحسن بنا أن نذكر جانباً من السورة الكريمة لتكون الصورة واضحة أمامنا:

قال الله تعالى:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾.

واضح من النص الكريم أن هذه الآيات تؤكد صدق الرسول فيما يقول وفي وصفه لما شاهد ليلة الإسراء والمعراج..

ومن نافلة القول أن نؤكد أن نزول سورة النجم كان بعد حادثة الإسراء والمعراج، فهي تعقيب على الحدث وتأكيد له.

وإذن لمعرفة زمن نزول هذه السورة، نحن بحاجة إلى بيان الزمن الذي وقعت فيه المعجزة الكبرى معجزة الإسراء والمعراج.

وعامة كتّاب السيرة، متفقون أنها وقعت بعد العام العاشر من البعثة.

فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري وعروة بن الزبير: أن الإسراء كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة[١] وادعى ابن حزم الإجماع على هذا[٢].

وقال ابن عبد البر وغيره: كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران[٣].

وقال السدي: كان الإسراء قبل الهجرة بستة عشر شهراً[٤].

وقال ابن فارس: كان قبل الهجرة بسنة وثلاثة أشهر[٥].

---

(١) السيرة النبوية، الدكتور مهدي رزق الله أحمد. ص٢٣٣، وزاد المعاد ٣/ ٤١.

(٢) المواهب اللدنية للقسطلاني ١/ ٢٧٤.

(٣) زاد المعاد ٣/ ٤٢.

(٤) السيرة النبوية الصحيحة، لأكرم ضياء العمري ١/ ١٨٨.

(٥) المواهب اللدنية ١/ ٢٧٤.

وقيل قبل الهجرة بثلاث سنين، ذكره ابن الأثير[1].

وإذاً فهذه الأقوال تلتقي على أن حادثة الإسراء والمعراج كانت بعد العام العاشر من البعثة.

وبدهي أن يكون نزول سورة النجم بعد الإسراء، كما ذكرت، وعلى هذا فقد كان نزولها قبل الهجرة بسنة أو سنتين.

وكان نزولها بعد عودة المهاجرين الهجرةَ الثانية إلى الحبشة بدلالة أن حادثة السجود إنما رواها عبد الله بن مسعود.

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة «والنجم» قال: فسجد رسول الله ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف[2].

---

(١) المواهب اللدنية ١/ ٢٧٤.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٨٦٣ وكذا مسلم ولم يذكر اسم أمية.

كما أخرجها البخاري أيضاً عن ابن عباس[1].

والذي أحب أن أؤكد عليه:

١ ـ أن حديث ابن مسعود[2] نص صريح بحضور ابن مسعود حادثة تلاوة السورة وسجود الحاضرين، مسلمين وغيرهم، إذ هو راوي الحديث.

وأكد حضوره مرة أخرى بذكر رؤيته لذلك الذي أخذ حفنة من تراب وسجد عليها.

٢ ـ أن عبد الله رجع إلى مكة وجلس فيها حتى هاجر إلى المدينة.

والخلاصة:

نخلص في نهاية هذا الفصل إلى المسلَّمة التالية:

إن سورة النجم كان نزولها بعد السنة العاشرة من البعثة.

ومن المتفق عليه أن نزولها كان دفعة واحدة.

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٥٧٦.

(٢) إنما كان الاهتمام كبيراً بشأن عبد الله بن مسعود في الفصل الأول، لأنه راوي حديث السجود.
وإذا أثبتنا هجرته مع جعفر، فذلك دليل على يقين الدليل.

الفصل الثالث

إبطال القصة في ضوء المعطيات السابقة

بناء على المعطيات السابقة ـ وقبل مناقشة آية سورة الحج ـ نستطيع أن نجزم ببطلان القصة.

فقد رأينا في الفصل الأول أن الهجرة الأولى كانت بين شهري: رجب وشوال، من السنة الخامسة للبعثة باتفاق كتّاب السيرة.

ورأينا أنه من مقتضى صحة قصة الغرانيق: أن تكون سورة النجم قد نزلت قبل شهر شوال، حتى تكون سبباً في رجوع المهاجرين.

ولكن هذا لم يحدث.

فقد ثبت لدينا بالدليل القاطع أن سورة النجم نزلت بعد العام العاشر من البعثة، كما ثبت ذلك في الفصل الثاني.

فهل يعقل أن تكون الآيات التي نزلت في العام

العاشر سبباً في رجوع المهاجرين في العام الخامس، أي قبل نزولها بخمس سنوات على أقل تقدير؟[1] نعتقد ـ والحمد لله ـ أن الأمر من الوضوح، بحيث لا يكابر فيه إلا معاند، لا يريد الانصياع إلى الحق.

وبهذا نلاحظ أن النقد التاريخي من أقوى أنواع النقد وأوضحها في إظهار الباطل.

وبعد إثبات زيف القصة بما لا يقبل الشك، يحسن بنا أن نبين عوار المعنى الذي جاءت به «جملة الغرانيق» في سياق الآيات، إن سياق الآيات بعد إدخال جملة الغرانيق فيه يصبح هكذا ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

---

(١) قد يقول بعضهم إذا كانت لا تصلح أن تكون سبباً لعودة المهاجرين الأول، ألا تصلح أن تكون سبباً لعودة عبد الله بن مسعود ورفاقه؟ والجواب: لا تصلح، لأنها نزلت بعد رجوعهم وابن مسعود ينقل لنا قصة نزولها والسجود فيها.

والغرانيق: جمع، واحدها غرنوق وغرنيق، وهو الذكر من طير الماء، سمي به لبياضه، وقيل هو الكركي.

وقال شراح القصة: بأن المقصود بها الأصنام، وأن الأصنام شبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع، فالأصل: تلك آلهة كالغرانيق في ارتفاعها[1].

وإن تشبيه الأصنام بالغرانيق غير معقول المعنى، فالغرنوق طائر مائي، وهو ليس في بيئة أهل مكة، وهم المغاطبون حينئذ، ثم إذا كان وجه الشبه في العلو والقوة، فهما متوفرتان في غيره من الطيور كالنسر مثلاً، ولم يسبق للعرب أن ورد هذا الاستعمال في كلامها شعراً أو نثراً، فكيف فهموا أن المقصود به تلك الأصنام؟

قال سيد قطب رحمه الله:

«إن سياق السورة ذاته ينفيها - أي روايات الغرانيق - نفياً قاطعاً، إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين في هذه الآلهة وأساطيرهم حولها، فلا محال لإدخال هاتين العبارتين في سياق السورة بحال، حتى

(١) شرح الزرقاني على المواهب ١/ ٢٨٠.

على قول من قال إن الشيطان ألقى بهما في أسماع المشركين دون المسلمين.

فهؤلاء المشركون كانوا عرباً يتذوقون لغتهم، وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدها ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ . .﴾ ويسمعون بعد ذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ ويسمعون قبله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾.

حين يسمعون هذا السياق فإنهم لا يسجدون مع الرسول ﷺ لأن الكلام لا يستقيم، والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاعة ترتجى لا يستقيم. وهم لم يكونوا أغبياء كغباء الذين افتروا هذه الروايات، التي تلقفها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين»[1]

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٢٠ عند تفسير السورة.

الفصل الرابع

تفسير آية سورة الحج

تم كما رأينا إبطال قصة الغرانيق، مما لا حاجة معه إلى أي كلام آخر، ولكن آية سورة الحج كانت ذات دور فاعل في حَبْكِ القصةِ، لذا كان علينا أن نتوقف عندها بالقدر الذي يعيد الحق إلى نصابه.

رأي المفسرين:

تقول القصة: إن النبي ﷺ لما ألقى الشيطان على لسانه ما ألقى حزن فأنزل الله تعالى هذه الآية من سورة الحج تسلية له:

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1].

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

قالوا: معنى تمنى: تلا أو قرأ.

وفي هذا التفسير للكلمة تسلية للرسول ﷺ لأنها قاعدة عامة فكل نبي يحدث معه هذا الأمر.

وينقل لنا ابن كثير طائفة من الأقوال فيقول:

«قال البغوي: وأكثر المفسرين قالوا معنى قوله (تمنى) أي تلا وقرأ كتاب الله ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي في تلاوته. قال الشاعر في عثمان حين قتل:

تمنى كتاب الله أول ليلة

وآخرها لاقى حمام المقادر

وقال الضحاك: (إذا تمنى) إذا تلا.

وقال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقال مجاهد: (إذا تمنى) يعني إذا قال، ويقال أمنيته: قراءته»[1].

وقال ابن القيم: «إن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في

(١) تفسير ابن كثير عند الآية المذكورة.

أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته»[1].

وقال الشيخ محمد ناصر الألباني بعد أن ساق بعض الأقوال: «فتأويل الكلام إذن: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تلا كتاب الله وقرأ أو حدث وتكلم ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه، أو في حديثه الذي حدث وتكلم، فينسخ الله ما يلقي الشيطان بقوله تعالى، فَيُذْهِب الله ما يلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويبطله.

هذا هو المراد من هذه الآية الكريمة، وهي كما ترى ليس فيها إلا أن الشيطان يلقي عند تلاوة النبي ما يفتتن به الذين في قلوبهم مرض..»[2].

وهكذا نرى أن قصة الغرانيق قد ألقت بظلالها على كل هذه التفاسير على الرغم من إنكار أصحابها لهذه القصة.

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم. تحقيق محمد عفيفي ١/ ١٥٠ المكتب الإسلامي.

(٢) نصب المجانيق ص٩ ولم يخرج المؤلف عما وقع فيه معظم المفسرين.

ولعل مصدر هذا كله يرجع إلى ما ذكره الإمام البخاري عن ابن عباس تعليقاً بقوله:

«وقال ابن عباس في ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾: إذا حدَّث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم آياته»[1].

ما يلزم بناء على رأيهم:

وتفسير (تمنى) بـ (تلا أو قرأ) يلزم منه أمران:

١ ـ أن كل الرسل قد حدث معهم ما حدث مع الرسول ﷺ من إلقاء الشيطان عند تلاوتهم، ولا شك بأنهم جميعاً يتلون كتب الله.

٢ ـ أن هذا الأمر يتكرر عند كل تلاوة يقوم بها الرسول أو النبي. فهو باستمرار عرضة لأن يلقي الشيطان عند تلاوته، وهذا ما يقتضيه الشرط «إذا» فالآية الكريمة تقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾.

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٣٨، ويلاحظ أن ابن عباس استعمل كلمة حدث وهي غير تلا وقرأ.

فكلما قرأ وتلا ألقى الشيطان في أمنيته..

وهذا اللازم من تفسير الآية بهذا الشكل، لم يرد به نص من آية أو حديث. بل هو أمر غير معقول مع ما عصم الله به أنبياءه.

ولذا ينبغي أن نتحرر من سيطرة قصة الغرانيق على تفسير الآية ونعود بها إلى الأصل اللغوي:

معنى «تمنى» لغة:

جاء في لسان العرب:

التمني: حديث النفس بما يكون وما لا يكون.

والتمني: السؤال للرب في الحوائج وفي الحديث «إذا تمنى أحدكم فليستكثر، فإنما يسأل ربه».

قال ابن الأثير: التمني تشهي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون.

وتمنى الشيء أراده. اهـ[1].

---

(١) هذا لا ينفي أن تأتي «تمنى» بمعنى «قرأ» ولكن الأصل في المادة ما أثبتناه.

الآيات التي ورد فيها لفظ التمني:

أقول: وقد جاءت كلمة التمني في القرآن بهذا المعنى الذي جاءت به اللغة والذي هو الأصل في مادة الكلمة: ونذكر الآيات الواردة في ذلك: قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة].

وقال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة البقرة].

وقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالى ناقلاً قول الشيطان:

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ..﴾ ثم قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء].

وقال تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

وقال تعالى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ٨٢].

وقال تعالى:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم].

وقال تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ [الحديد: ١٤].

وقال تعالى:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الجمعة].

وقال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة].

المعنى المستعمل في الآيات:

هذا كل ما ورد في القرآن من الآيات التي جاء فيها لفظ التمني، وكلها ـ باستثناء الآية الأخيرة ـ وردت بالمعنى اللغوي الأصل الذي نقلته عن لسان العرب، ولا يصلح أبداً أن نفسر أي واحدة منها بمعنى: «تلا» أو «قرأ».

أما الآية الأخيرة فقد جاء في «فتح القدير»: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ من كونهم مغفوراً لهم بما يدعون لأنفسهم من الأعمال الصالحة. وقيل الأماني التلاوة: أي لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم.

وقال الفخر الرازي «في تفسيره»:

تمنى: جاءت بمعنيين: بمعنى تمني القلب، وبمعنى القراءة كما في ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ وإنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية رحمة تمنى حصولها، وإذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها.

وأقول: لا تخرج هذا الآية عن المعنى الذي وردت به الآيات الأخرى بدلالة الآية التي بعدها. قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

فهناك من يتمنى، وهناك من يلبي له هذه الرغبة فيكتب له ما يريد. وهكذا أخضعوا الكتاب لما تمليه عليهم شهواتهم وأهواؤهم.

وإذن: فكل الآيات التي وردت فيها كلمة التمني إنما وردت بمعنى حديث النفس بما يكون وما لا يكون، وبمعنى تشهي حصول الأمر المرغوب فيه، وبمعنى إرادة الشيء. فلماذا تنفرد آية سورة الحج عن هذا النسق المطرد في الكتاب الكريم؟.

هذا ما يؤكد أن تفسير (تمنى) بـ (تلا أو قرأ) إنما كان تحت وطأة قصة الغرانيق التي أخذت أبعادها في نفوس كثيرة من المفسرين، فلم يستطيعوا التحرر منها على الرغم من إنكارهم للقصة وإقرارهم لمخالفتها لأمر العقيدة.

تفسير الآية الكريمة:

ونعود إلى تفسير الآية الكريمة:

ولعل خير ما كتب في شرحها، ما ورد في كتاب «الظلال» ونذكر بعضه بما يلي، قال رحم الله مؤلفه:

«النص يقرر أن هذه القاعدة عامة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فلا بد أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل.

وهذا ما نحاول بيانه بعون الله - والله أعلم بمراده - إنما نحن بشر، نفسر كلامه بقدر إدراكنا البشري.

إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى

الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة.. ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والرسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعزّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات، فيسكتوا عنها مؤقتاً، لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة. ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودون، ويودون، من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل، غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم.. هو أن تمضى على تلك الأصول، وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص في أول

الطريق. فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص، أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف. وتبقى مُثُل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء.

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس.. ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة، كما حدث في بعض تصرفات الرسول ﷺ، وفي بعض اتجاهاته، مما يبين الله فيه بياناً في القرآن.

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب، والله عليم حكيم.

فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين،

فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفي حياة النبي ﷺ وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا، تغنينا عن تأويل الكلام..

نجد من ذلك مثالاً في قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه، الأعمى الفقير، الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يقول: يا رسول الله أقرئني وعلمني مما علمك الله، ويكرر هذا القول، والرسول ﷺ مشغول بأمر الوليد بن المغيرة، يودّ لو يهديه إلى الإسلام ومعه صناديد قريش، وابن أم مكتوم لا يعلم أن رسول الله ﷺ مشغول بهذا الأمر، حتى كره رسول الله ﷺ إلحاحه، فعبس وأعرض عنه.. فأنزل الله في هذا قرآناً يعاتب فيه الرسول عتاباً شديداً:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن

جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢﴾.

وبهذا ردَّ الله للدعوة موازينها الدقيقة، وقيمها الصحيحة، وصحح تصرف رسول الله ﷺ الذي دفعته إليه رغبته في هداية صناديد قريش، طمعاً في إسلام من ورائهم وهم كثيرون، فبين الله له: أن استقامة الدعوة على أصولها الدقيقة أهم من إسلام أولئك الصناديد. وأبطل كيد الشيطان من الدخول إلى العقيدة من هذه الثغرة، وأحكم الله آياته، واطمأنت إلى هذا البيان قلوب المؤمنين»[1].

ثم ضرب سيد قطب أمثلة أخرى.. وبهذا اتجه - رحمه الله - الاتجاه الصحيح في تفسير هذه الآيات.

ونجد بذور هذا المعنى وباختصار شديد عند العلامة أبي السعود في تفسيره حيث يقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ أي هيأ في نفسه ما يهواه ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ في تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا، كما

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٣٣ - ٢٤٣٤.

قال عليه السلام: (وإنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة)[1] ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ فيبطله ويذهب به، بعصمته عن الركون إليه وإرشاده إلى ما يزيحه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شؤون الحق.

نكتفي بهذا القدر في الوقوف عند آيات سورة الحج. ولا يفوتنا أن نذكر بأن سورة الحج ـ التي منها هذه الآيات ـ سورة مدنية. بل هي من أواخر السور المدنية نزولاً.

والمفروض ـ وفقاً لقصة الغرانيق ـ أن يكون نزولها قد حصل قبل نهاية شوال من السنة الخامسة من البعثة، كما سبق ذكر ذلك؟

---

(١) أخرجه مسلم برقم ٢٧٠٢ ومعنى (ليغان) ما يتغشى القلب، وقيل الغفلات عن الذكر.

الفصل الخامس

سؤالان

تم في الفصول السابقة استكمال مناقشة العناصر المكونة لقصة الغرانيق، وتبين أنها من وضع أعداء الإسلام، وكان حبك القصة قوياً ومتماساً، مما يدل على أن واضعيه من العلماء الحاقدين على الإسلام.

ولكنهم في حبكهم لتلك القصة طرحوا من حسابهم ملاحظة جانب الزمن أثناء سبكها، أو غاب عنهم.

فقد جعلوا قراءة سورة النجم، ونزول آية الحج سبباً لرجوع المهاجرين في السنة الخامسة، وما نزلت سورة النجم إلا بعد العام العاشر، وكان نزول آية الحج في المدينة.

وهذا العمل شبيه بفعل الأغبياء من وضاع الحديث، الذي ينكشف زيف عملهم للوهلة الأولى.

ومن الغريب أن مناقشة القصة من وجهة النظر

هذه لم يستوقف أحداً ممن رفض القصة وقال ببطلانها. وسلك النقد لها طرقاً ثلاثة، مناقشة السند، ومناقشة تعارض الروايات، ومناقشة معارضة القصة لأمر العقيدة.

وأحمد الله أن الطريق الذي سلكته كان أخصر الطرق، وأشدها وضوحاً وأقواها حجة، وذلك من فضل الله تعالى.

وفي نهاية هذا الموضوع أضع هذا الفصل للإجابة على سؤالين ربما طرقا ذهن القارئ الكريم، وهما مما له صلة وثيقة في استكمال التصور للبحث. وإن لم يكونا ذا أثر في إبطال القصة. والسؤالان هما:

ما سبب رجوع المهاجرين إلى الحبشة في الهجرة الأولى؟

ما سبب سجود المشركين مع المسلمين عند تلاوة سورة النجم؟

سبب رجوع مهاجري الحبشة:

نحاول في هذه الفقرة التعرف على سبب رجوع مهاجري الهجرة الأولى، أما سبب رجوع مهاجري الهجرة الثانية فقد بيناه بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة.

وكتّاب السيرة يذكرون أحد سببين لهذا الرجوع، وقد بينا بطلان أحدهما وهو قصة الغرانيق، وأما القول الآخر فهو الذي يعد سبب رجوعهم هو سماعهم بإسلام أهل مكة.

وبعد البحث لم أجد مستنداً لهذا القول، والقول بحد ذاته غير مقنع، فليس من المعقول أن يسلم أهل مكة هكذا بين عشية وضحاها. بل إن هذا القول ناتج عن قصة الغرانيق[1].

والذي أراه: أن الهجرة الأولى إلى الحبشة تعد الأولى من نوعها في تاريخ قريش إن لم نقل في تاريخ العرب. وقد تعود أهل مكة الرحلة في طلب الرزق. وقد نص القرآن الكريم على رحلتي الشتاء والصيف، وهما رحلتان تجاريتان، بواعثهما مادية صرفة، يخفف آلام الغربة فيهما الأمل في الربح المتوقع، والاطمئنان

---

(١) ذهب ابن حجر ـ رحمه الله ـ إلى أن سبب العودة هو السجود في سورة النجم، ومنه أشيع إسلام أهل مكة [فتح الباري ٧/ ٢٣٤].
وقد بينا أن السجود لا يصلح لأنه متأخر جداً عن وقت الحادثة.

إلى قرب العودة إلى الوطن بعد انتهاء عملية البيع والشراء.

ولكن هجرة الحبشة كانت بباعث غير مادي، والغربة أمر قاس على النفس، وخاصة إذا كانت إلى قوم تفصلك عنهم حواجز اللغة والأعراف والعادات والتقاليد، وإن مدة هذه الهجرة مفتوحة وغير محددة، فالمهاجرون لا يدرون متى ستنصاع قريش إلى كلمة الحق... صحيح أن النجاشي أكرمهم، ولكنهم في عيشهم إنما هم مع شعب النجاشي، لا مع النجاشي، ولقد عبّرت السيدة أسماء بنت عميس عن الضيق الذي كانوا يكابدونه في الحبشة، وهي وإن كانت من أصحاب الهجرة الثانية إلا أن المشاعر واحدة في هذا الميدان، ولنستمع إلى حديثها كما رواه البخاري.

«... دخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم، فغضبت وقالت: كلا والله، كنتم مع

رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البُعَداء والبُغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ: ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله...[1]».

انظر معي إلى قولها: «كنا في دار البعداء والبغضاء»، وقولها: «ونحن كنا نؤذى ونخاف».

إن هذا ليعبر عن الضيق والألم وعدم الراحة، تقول هذا وهي من أصحاب الهجرة الثانية، والمهاجرون فيها كثير يواسي بعضهم بعضاً، ويخفف بعضهم عن بعض آلام الغربة... أما المهاجرون الأول فعددهم قليل، جاؤوا إلى مجتمع غريب عنهم في كل شيء، فلا شك أن مشاعر الغربة كانت قاسية عليهم، الأمر الذي جعلهم يرون إيذاء قومهم محتملاً إزاء ما كانوا يعانون من غربتهم، وهذا ما دفعهم إلى العودة، وربما ساعد على ذلك وصول نبأ إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما.

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٣٠.

بل ربما كان خبر إسلامهما هو السبب الحقيقي للرجوع، وهما من هما.

سبب سجود المشركين:

إتماماً لوضوح الصورة واستكمالاً للبحث، يحسن بنا أن نتكلم عن سجود المشركين عند تلاوة سورة النجم كما وعدنا بذلك.

وهذه الحادثة وردت في «الصحيح»، وكتّاب السيرة لم يعنوا بالبحث عن هذه القضية، فالذين نفوا قصة الغرانيق اعتبروا الحادثة باطلة كلها ولم تستوقفهم قضية السجود الواردة في الصحيح بل لم أر من أشار إليه، والذين قالوا بصحتها لم يكونوا بحاجة إلى ذلك لأنها كانت نتيجة لقصة الغرانيق المزعومة!!

وقبل البدء أجدني بحاجة إلى الإجابة على سؤال ملحٍّ هو: كيف تسنى للرسول ﷺ أن يجمع المسلمين والمشركين في مكان واحد، ثم يقرأ عليهم سورة النجم؟

وإيضاحاً لذلك أقول: لم يكن المسلمون ـ كما يتبادر للوهلة الأولى ـ بمعزل عن الحياة الاجتماعية بمكة على الرغم من تلك العداوة القائمة بينهم وبين

المشركين، فقد كانوا يجالسونهم ويناقشونهم ويدلون بآرائهم في مجالسهم، بل ربما تحرش المشركون بالمسلمين من باب السخرية والإيذاء، فيكون الجواب إصراراً على العقيدة وتمسكاً بها، وأكتفي في سبيل بيان ذلك بذكر الحادثتين التاليتين:

● دخل عثمان بن مظعون مكة بعد عودته من الهجرة الأولى من الحبشة في جوار الوليد بن المغيرة، ثم ردَّ عليه جواره حتى لا يكون متميزاً على غيره من المسلمين. وجلس يوماً في مجلس لقريش ينشد فيه لبيد شعره فكان مما قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد:

وكل نعيم لا محالة زائل

فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول ـ فقام رجل فلطم عثمان..[1].

● والحادثة الأخرى: هي لقاء أبي جهل

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣٧٠.

بالرسول ﷺ صبيحة ليلة الإسراء فقال له: هل من شيء؟ فقال ﷺ: نعم... وجمع أبو جهل المشركين ليسمعوا حديث الإسراء واجتمع المسلمون أيضاً...

وإذا عرفنا أن المسجد الحرام كان النادي الذي يجتمع فيه القوم مسلمهم وكافرهم... فإني لا أستبعد أن يكون الرسول ﷺ قد أتى إلى المسجد الحرام فسأله أحدهم مثل سؤال أبي جهل فأجابه بتلاوة سورة النجم فكان ما كان، ويؤيد هذا أن الحادثة هذه كانت بعد حادثة الإسراء... فلعلهم أحبوا أن يعرفوا ما هو الجديد، فطرحوا السؤال نفسه، وفي مثل هذه الحالة عليهم أن يستمعوا ما طلبوه...

ومن المحتمل أن الرسول ﷺ نزلت عليه سورة النجم، فخرج إلى المسجد، والمسجد فيه المسلم والمشرك، فتلا عليهم السورة.

وإذن فلم يكن المسلمون بمعزل عن المشركين، وقد استمعوا هذه السورة من أولها إلى آخرها حيث آية السجدة فيها.

وأما تعليل سجودهم، فهناك أكثر من عامل أدى إليه فيما نظن، وربما اجتمعت هذه العوامل مع بعضها لدى بعضهم. ونذكر منها:

١ ـ إن الكلمة البليغة تأخذ على العربي لبه، ومن هنا جاء القرآن الكريم في بعض ما جاء به يتحداهم بهذا الجانب... وقد عجزوا... وكان كل منهم في نفسه كل الرغبة إلى استماع كلام الله تعالى... ولكن التواصي بعدم استماعه هو الذي جعلهم يبتعدون ظاهراً وفي نفس كل منهم ميل شديد إلى الاستماع، والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها: إحدى روايتي إسلام عمر رضي الله عنه.

ومنها: ما رواه ابن هشام من استماع أبي سفيان وأبي جهل والأخنس ابن شريق القرآن ليلاً من الرسول ﷺ دون أن يراهم، ودون أن يرى أحدهم الآخر، فلما ذهبوا إلى بيوتهم جمعهم الطريق، فلام بعضهم بعضاً... لأنهم هم كبار القوم الذين يصدونهم عن السماع[1].

ومنها: ازدحام النساء والصبيان على أبي بكر حين كان يقرأ في صلاته...

والاستماع هنا سيعقبه حتماً إعجاب

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٣١٥.

واستحسان... كما قال الوليد ذلك صراحة. فلما وصل ﷺ في تلاوته إلى السجدة وجدوا أنفسهم منساقين إلى السجود بدافع الإعجاب وقد أخذت الآيات من نفوسهم مأخذها.

٢ ـ إن قناعة قريش قائمة بصدق الرسول ﷺ ولذا وجدنا عتبة بن ربيعة عندما ذهب لمفاوضة الرسول ﷺ... فبدأ ﷺ بتلاوة سورة فصلت، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ فما كان من عتبة إلا أن وضع يده على فم الرسول ﷺ يريد ألا يتم تلاوته، وهو خائف مذعور وجعل يناشده الرحم خوفاً من نزول تلك الصاعقة، وربما كان سجودهم هنا انطلاقاً من هذا المعنى فقد ورد قبل الأمر بالسجود قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾..﴾.

٣ ـ وكان من عاداتهم وما توارثوه أن الإنسان إذا دعي عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه تلك الدعوة ولم يصبه مكروه، وهذا ما فعله أبو سفيان حين سمع دعوة خبيب بن عدي فألقى بنفسه وبابنه معاوية إلى الأرض.

فلنستحضر هذه المعاني جميعاً.

من تذوق لبلاغة الكلمة.

ومن يقين بصدق النبي ﷺ وبالتالي من تخوف من وعيده.

ومن تلهف إلى سماع هذا القرآن.

ولنستحضر ـ في ذهننا ـ أن التالي هو رسول الله ﷺ وهو من أنزلت عليه هذه الآيات.

وأن هذه الآيات تطرق أسماع الحاضرين جميعاً لأول مرة.

أقول: لنستحضر كل هذا ثم لنستمع إلى المقطع الأخير من هذه السورة...

قال تعالى:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ

عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾
فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا
نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا
مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾
وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ
وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

فهل هناك من يتمالك نفسه عن السجود؟ إن لم يكن لاعتبار واحد منها فللاعتبارات السابقة مجتمعة.

المحتوى

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
تمهيد: في بيان القصة ونقد العلماء لها:	٥
- ملخص القصة	٥
- محل الإشكال	٧
- إبطالها من حيث السند	٩
إبطالها من حيث المتن	١١
- الفريق الثالث	١٣
- تأويل القصة	١٦
- فريق رابع	٢٠
- الخلاصة	٢٢
رد القصة من وجهة النظر التاريخية	٢٣
النقد التاريخي المستند إلى عامل الوقت	٢٥
الفصل الأول: الهجرة إلى الحبشة	٢٩
- الهجرة الأولى	٢٩
- الهجرة الثانية	٣١
الفصل الثاني: بيان نزول سورة النجم	٤٢
- مكانة السورة في القصة	٤٢

الموضوع	الصفحة

- خلط الحق بالباطل ٤٢
- تحديد زمن النزول ٤٣
الفصل الثالث: إبطال القصة في ضوء المعطيات السابقة ٤٨
الفصل الرابع: تفسير آية سورة الحج ٥٢
- رأي المفسرين ٥٢
- ما يلزم بناء على رأيهم ٥٥
- معنى «تمنى» لغة ٥٦
- الآيات التي ورد فيها لفظ التمني ٥٧
- المعنى المستعمل في الآيات ٥٩
- تفسير الآية الكريمة ٦١
الفصل الخامس: سؤالان ٦٧
- ما سبب رجوع مهاجري الحبشة؟ ٦٨
- ما سبب سجود المشركين؟ ٧٢
المحتوى ٧٩